بسم الله الرحمن الرحيم

(قراءة في بعض الخصائص العلمية لحاضرة توات)

د. عزّالدّين كشنيط

أ. محاضر (أ) م. الجامعي تمنراست

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد ...

إنّ المتتبّع لأحوال هذه حاضرة توات العلمية، والمتمعن في معالمها يلحظ (لا محالة) علامات مميزة، وخصائص تبعث بالفكر على الشرود والحيرة في تعليل وجود تلك المظاهر في تلك البيئة القاسية، والبقعة البعيدة عن أقاليم العمارة، وتخوم الحضارة، كما أنّ الوقوف على بعض الثغرات تدفع الباحث الغيور على هذه الحاضرة إلى الجرأة على تنبيه أهلها على عواقب التفريط في سدّها، والمطالبة بضرورة مراعاة تلك المواضع، حتى لا يتسع الخرق على الرّاقع.

وهذه فقرات موجزة، تكلّفت تحضيرها على عجل لأسهم بها في تثوير البحث في بعض جوانب موضوع هذا الملتقى المبارك، ومقصودي من ذلك لفت نظر سادتي العلماء والباحثين إلى بعض أهمّ خصائص المدرسة المالكية في حاضرتها التواتية، في محاولة تفسيرية لبعض الملاحظات والنتائج التي كنت قد قيّدتها في بحث سابق عن خصائص هذه المدرسة ومميزاتها، ثمّ عملت على إيجاد تفسير لها على ضوء بعض التعليلات والتحليلات المستندة على الحقائق العلمية التي قد تكون مسوغات لها، أو جزءا من تلك المسوغات على الأقلّ، و الله الموفق وهو يهدي السبيل.

وسوف أبسط الكلام في تلك الخصائص والسّمات بحسب ما أسعف النظر في أمره، واتّسع الوقت المقام لذكره، وأبدأ بسرد بعض ما رأيته من الخصائص المتميّزة في هذه الحاضرة العلمية، وبعض ذلك التميّز تميز مطلق، وبعضه تميّز نسبي، ثمّ أعرّج على ذلك بالتعليق والتحليل والتفسير، بعد النظر فيما وقفت عليه من المادة العلمية التي تخصّ الموضوع.

أولا – خصوصية الاستقرار والتّعمير:

تتميّز هذه الحاضرة العلمية بأنّها من الحواضر العلمية المستقرّة والمعمّرة، ولعلّ بُعْدَ هذه الحاضرة عن مناطق الصراع التاريخية، ووقوعها في مفترق طرقٍ لتجارة إقليمية، وبساطة الحياة فيها، وإخلاص

أهلها للمذهب المالكي، قد أمّن لها جاذبية دائمة للمشتغلين بالعلوم الدينية عامة، وفقهاء المذهب على الخصوص، وضمن استمرارية البناء فيها عهودا متواصلة.

ولعلّ طبيعة هذه المنطقة حالت دون مجيء الفتانين طالبي الدنيا إليها، بل لا يلتحق بها إلا من أخلص نيّته للعلم والعبادة، وابتغى سلوك طريق الآخرة؛ ولا يستغرب مثل ذلك، إذا علمنا انّه احد أهمّ عوامل بقاء قريش وبعض القبائل العربية بمنأى عن تأثير الفرس والرومان وسلطانهم وأطماعهم؛ إذ لم يروا فيها ما يغري بغزوها أو السيطرة عليها، وهو وإنْ كان قياسا مع الفارق إلا أنّ التشابه في عامل البيئة وآثارها في إبعاد البقعتين عن مخاطر الغزو وحصول الاستقرار والأمان بيّن للعيان.

يقول الشيخ عبد الرحيم التمنطيطي اليحياوي:"اعلم أنّ تواتنا هذه أرض جدب وقلّة مع بركة وقناعة وأمان وعافية، تتهيّأ فيها العبادة والديانة والرياضة والزهادة... إن قل فيها الرزق فقد كثر فيها الأمان..."[(١)]

وكثيرا ما يخطر ببالي أنّه كلّما زهد الناس في مراتع الحضارة وتوغّلوا جنوبا داعين إلى الله تعالى، حاملين نفحات الهداية إلى تلك الأصقاع القاحلة المقفرة إلا حفظ الله تعالى عليهم دينهم، وزادهم في علمهم، وفتح عليهم أضعاف ما يفتح به على من ركنوا إلى الدعة، وهذا ما أراه حقيقة حينما أقرأ فيما كتبه أمثال الشيخ باي بن عمر الكنتي والشيخ المختار الكنتي الكبير وحفيد الشيخ البكاي ومحمد بن بادي، وغيرهم.

هذا أحد العوامل المهمّة في استقرار المنطقة، ويمكن أنْ نضيف إليه سمة مهمّة أخرى أسهمت في تعمير هذه الحاضرة، والإطالة في نفسها؛ وهو تأسيس عوائل علمية حقّقت الاستمرارية والتواصل العلمي عبر أجيال متتالية؛ وخير مثال على ذلك ما حققته العوائل البلبالية، والتنلانية، والكنتية، والبكرية، والمغيلية وكذلك المطارفة، وغيرهم في هذا الحاضرة من تواصل علمي متواصل بين أجيالها.

بل توارث بعضهم القضاء لأجيال عديدة لم ينصرم ذلك إلا من عهد قريب؛ كالبلباليون.[(٢)]

ثانيا- خلوص حاضرة توات للمذهب المالكي:

لا شكّ أنّ سمة المذهبية المالكية في هذه الحاضرة العلمية من ثوابتها الراسخة، وأعلامها الشامخة، ... انتشر فيها المذهب المالكي، فلم يكن له في هذه الرّبوع مذهب منافس أو خصم مشاكس؛ وهذه مزيّة عظيمة لهذه المنطقة، أسهمت في استقرارها فكريا وفقهيا،.. وهي خصيصة جديرة بالدراسة والاستثمار

---

(١) ينظر القول البسيط في أخبار تمنطيط، محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم الشهير بابن بابا حيدة، تح:فرج محمود فرج: ص١٧٨.
مطبوع مع كتاب إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، فرج محمود فرج/ ديوان المطبوعات الجامعية-٢٠٠٧م.

(٢) (ينظر موسوعة حساني: ٢/١٠٢-١١٠)

من خلال محاولة الكشف عن بعض أسرار تلك المقاومة التي حفظت لهذه المنطقة مناعتها، وأبقتها عصيّة على كلّ محاولات التشويش، والفوضى الفقهية؛ فقد كانت هذه المدرسة – بحق– ولا تزال قلعة من قلاع المذهب المالكي الحصينة التي عصمته من كثير مما أصابه في أماكن أخرى.

لا يخفى على المتتبع للتاريخ أنّ المغرب الإسلامي كان أكثرَ ميلا إلى المخالفة الفكرية لما كانت عليه الدولة العباسية بالمشرق، وذلك من بعض آثار الهوى الأموي في المنطقة، أُضِيفَ إليه استضافة هذه الرقعة لدعوة الأدارسة الحسنيين، وما كان ينتظر منهم أن يختاروا ما اختاره العباسيون من التمكين للمذهب الحنفي وفقهائه في دولهم.

وللسائل أنْ يسأل: قد كانت هذه الحاضرة في تماس مع المذهب الإباضي، فلم لم تتشرّب شيئا منه؟!؛ وجواب ذلك بيّن؛ فإنّ الذي يهدد المذهب السنّي هو مذهب سنّي مثله، أما المذهب الإباضي فإنّ الحاجز العقدي يحول دون تلك المخاوف، إضافة إلى أنّ معتنقي المذهب الإباضي في جنوبنا هم ممن يتمسك بمذهبه ويعتزّ به لكنهم لم يؤثر عنهم دعوة غيرهم إلى اعتناقه.

لذلك وقع طول الجوار بينهم وبين الإباضية دون نزاعات معتبرة؛ خلافا لموقفهم من بني عبيد، الذين كانوا داعين إلى مذهبهم، يُكرِهون الناس عليه، ويقتلون العلماء في سبيله.

وكذلك فإنّ العلماء قد أجازوا الانتقال من مذهب سنّي إلى مذهب سنّي آخر، بخلاف الانتقال إلى مذاهب غير سنّية؛ لاقتضاء ذلك الانتقال إلى مذهب عقدي آخر، وذلك ما أجمعوا على حضره وحرمته.

ولا يمنع ذلك بحال تناول أقوال غير المذاهب السنية في الفروع وطرحها للنظر، في باب الفقه المقارن، فقد وسَّعوا الأمر في الفروع وضيقوه في الأصول.

ومما أسهم في خلوصها للمذهب المالكي أيضا كونُها محاطة بحواضر مالكية من جهاتها الأربعة، فلا يصلها تشويش حتى يستوفي حقّه من مقاومة الحواضر المالكية الأخرى.

وكون هذا المذهب و المذهب السني الوحيد الذي كان متاحا في المنطقة لمجابهة تحديات المذاهب غير السنية، وقد امتدّ نفوذ هذا المذهب جنوبا من خلال أهم حواضره في الشمال، وهي (القيروان، وبجاية، وتلمسان، وفاس، والأندلس)، من خلال هجرة كثير من أعلام المذهب من الشمال جنوبا؛ سواء من الأندلس، أو من مدن الشمال، أو بهجرة بعض أعلام الجنوب شمالا نحو حواضر تدريس المذهب.

يضاف إلى ذلك حظوة هذا المذهب عند غالب حكام ممالك المغرب الإسلامي ودوله، وحفاوة الناس به؛ وليس ذلك بمستغرب لكون المذهب المالكي في حقيقة أمره الوجه البارز لغالب ما كان عليه أهل المدينة المنورة في الجانب الفقهي.

ثالثا- تنوّع الفتوحات الخارجية لحاضرة توات:

بعد أنْ تمّ للفاتحين المسلمين فتح الشمال الإفريقي، ثمّ العبور المظفر إلى الأندلس، ركن أكثر المسلمين إلى العمارة والتفنّن في مظاهر الحضارة، فبقيت التخوم الجنوبية في منأى عن نفحات الهداية، فكان الدور للقلم واللسان بعدما كلّت الرّماح وأغمدت السنان، وكان لعلماء حاضرة توات وبالخصوص أبناء عقبة بن نافع من الكنتيين نفعٌ عظيم في تلك التخوم، فغزوا أطراف الصحراء الإفريقية الكبرى بزواياهم وأعلامهم وصلحائهم، فكانت الفتوحات العلمية في تلك البقاع -بحق- امتداد للفتوحات العسكرية لجدهم عقبة بن نافع رضي الله عنه.

وحقّ لنا أنّ ننظر إلى الإنجازات العظيمة لعلماء هذه المنطقة على أنّها استمرار واستكمال لفتوحات سلفهم في أعماق إفريقيا.

وفي هذا الصدد يقول الباحث المصري د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم :" .. كنته إحدى القبائل العربية التي كان لها نفوذ كبير ولا يزال في جنوب الصحراء الكبرى والساحل، وقد هاجرت هذه الجماعات من منطقة توات في جنوب الجزائر في القرن الخامس عشر الميلادي، ووصلوا إلى حدود تمبكتو..." ويذكر أنّها اكتسبت شهرة دينية، جعلت الكثيرين يسعون للانتماء إليها، وبوّأها ذلك مقام الوسيط بين القوى المتصارعة في المنطقة.(٣)

وتكلّم العلامة محمد المنّوني عن دورهم الإيجابي في ربط ضفتيْ الصحراء ثقافيا ودينيا واقتصاديا فقال:" كانوا أبرز قناة حضارية ساهمت في نمو واستمرار العلاقات الثقافية والروحية -بل والاقتصادية- بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوبي الصحراء طيلة خمسة قرون الماضية..."(٤)

وقد ذكروا فيمن انضمّ إلى المجموعات العربية التي نزلت تلك البقاع أيضا بيتٌ من أشراف زاوية مولاي الرقاني بمنطقة توات وغيرهم.(٥)

بل يصرّح المستشرق بول مارتي بأنّ الإسلام دخل إلى تلك البقاع بفضل مساعي الشريف محمد بن عبدالكريم المغيلي(ت٩٠٩ هـ/ ١٥٠٣ م)، أو بواسطة تلاميذه المباشرين في القرن الخامس عشر، وذكر بأنّه تتبّع نهر النيجر إلى ناحية ساي، وأرسل بعثات من قبله إلى بلاد جرماجندا *(Djermagenda)*، وربما إلى الشرق أيضاً.(٦)

---

(٣) ينظر مقال بعنوان(من آثار العرب والحضارة العربية الإسلامية في منطقة حوض نهر النيجر "مـالي")، منشور على موقع (جيران) *[http://sayedbenalfardy.jeeran.com/]*.

(٤) من كتابه :(العلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية)، المرجع السابق.

(٥) ينظر مقال بعنوان(من آثار العرب والحضارة العربية الإسلامية في منطقة حوض نهر النيجر "مـالي") ينظر المرجع السابق.

(٦) ينظر Paul Marty, *L'Islam et les tribus dans la colonie du Niger*, p. 342.

وقد أثمرت تلك الفتوحات الجنوبية، فأهدت للغرب الإسلامي دولة قوية سميت بدولة الفقهاء، هي دولة المرابطين، التي أطالت في عمر حضارة المسلمين في الأندلس، ونفخت فيها روح الحياة حين كانت تُحتضر.

وذلك الفتح ملحوظ أيضا في الأثر الكبير الذي خلّفته رحلة الشيخ المغيلي جنوبا، ونزل فيها في ضيافة الأسكيا محمد توري ملك سنغاي، وكان يرافقه في تلك الرحلة تلميذه النجيب ومريده الطائع وحامل رسالته من بعده في الصحراء وبلاد السودان (سيد عمر الشيخ الكنتي).

فقد رحل أيام إقامته بتوات إلى أرض السودان الغربي(بلاد التكرور)، وكان لتلك الرحلة أثر عظيم على أهالي تلك البقاع، علميا، وسياسيا، واجتماعيا، وأسهم ذلك في نشر الإسلام في تلك البقاع، وانتشار المذهب المالكي بها إلى اليوم.

ولعلّ ذلك الاتّصال هو ما أذكى قريحة المغيلي فسما بالفقه المالكي في تلك البقاع إلى سياسة الملوك وتسيير الدول من خلال ما كتبه في الموضوع.

وقد ذكر عنه المستشرق بول مارتي بأنّ أكابر تلك البقاع قد أحسنوا وفادته، وقرّبه أمراؤها وملوكها وجعلوا منه مستشارهم الخاص ومرجعهم الفقهي الأعلى، وكتب لهم رسائل ووصايا وفتاوى في أمور الحكم والدولة والسياسة الشرعية.(٧) فألّف لأمير كانوا محمد ابن يعقوب رسالته المسماة (تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين– ط)؛(٨) وألّف له رسالة أخرى بعنوان (ما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام)(٩)، وألّف لغيره(أسئلة أسكيا وأجوبة المغيلي).(١٠)

وعلى العموم فقد كان لهذه الحاضرة أثر كبير على الحياة العلمية في البلاد التي تليها جنوبا، وفضل كبير في نشر الفقه المالكي في أرجائها، بل غدت حاضرة توات القلب النابض للحركة العلمية في الصحراء الإفريقية الكبرى دون منازع.

---

(٧) ينظر بول مارتي، كنتة الشرقيون: ص ٣٢ . ٣٣، و ص ١٤١.

(٨) طبعت هذه المجموعة طبعات متعددة وترجمت إلى الإنجليزية، وآخر طبعاتها صدرت سنة ١٩٩٤ م، عن دار ابن حزم (بيروت)، بتحقيق محمد خير رمضان يوسف. مقال بعنوان (الداعية المصلح محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي)، منشور على موقع منتديات الجلفة *(http://www.djelfa.info/vb/archive/index.php/t-39069.html)*

(٩) ترجمها ريشارد بلمر *(R. Palmer) إلى* الأنجليزية سنة ١٩١٤ م، ثم نشرها الألوري في كتابه "الإسلام في نيجيريا"، وضمنت أيضاً في كتاب "ضياء السياسات" لعبد الله بن فودي الذي نشره د. أحمد كاني سنة ١٩٨٨م. المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(١٠) ألفها إجابة لأسئلة السلطان محمد بن أبي بكر التوري المعروف بالحاج أسكيا أمير مملكة سنغاي، أيام استضافته له في مملكته، نشرت بتقديم وتحقيق الأستاذ عبدالقادر زبادية، سلسلة ذخائر المغرب العربي، مطبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر سنة ١٩٧٤ م، ينظر مقال بعنوان (الداعية المصلح محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي)، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

ولا شكّ أنّ هذا الأثر انحصر كثيرا في أيامنا هذه، غير أنّ استعادة ذلك الدور ليس محالا، خصوصا وأنّ تلك القبائل المهاجرة من توات لا تزال تحتفظ لحاضرتها بتلك الصلات الروحية فضلا عن صلة النسب، ومواسم الزيارات شاهدة على ذلك الوفاء، كما أنّ بلدنا يحتاج إلى ذلك النوع من النفوذ والصلات الحسنة لحفظ أمنه جنوبا، ويملك الإمكانيات اللازمة لإنفاذها، ولعلّ تسمية جامعتكم هذه بالجامعة الإفريقية تصبّ في هذا الباب.

وهذه الخصيصة تؤهل هذه الحاضرة للتفوّق على كثير مما جاورها من الحواضر، من حيث تعدد آثارها؛ دينيا وسياسيا وعسكريا وعلميا.

وكلّ ذلك وقع في عباءة المذهب المالكي وتحت ظله، ولا تزال تلك البقاع وفيّة لهذا المذهب، ولا تعرف عبادة الله تعالى بغيره، فمكّنت هذه الحاضرة للمذهب المالكي في تلك البقاع من حيث لا تشعر.

رابعا- احتضان حاضرة توات للواردين عليها من أهل العلم والفضل:

لا بدّ لأيّ حاضرة من حواضر العلم والحضارة أنْ تضمّ أصنافا ثلاثة من الأعلام: الوافدون إليها، والواردون منها، وخلّص أعلامها منشأ وإقامة.

وإنّ النظرة العجلى في تعداد أعلام حاضرة توات تشير إلى أنّها تزخر بكثير من الواردين والوافدين عليها؛ والمميّز في الموضوع أنّ هذه الحاضرة استقطبت شخصيات علمية كبيرة، من حواضر علمية عريقة، على الرّغم من طبيعتها المناخية القاسية، فقدم إليها أعلام من تلمسان وفاس وسجلماسة والجزائر وغيرها، فاستقطبت قاضيها ومفتيها الشيخ العصنوني من تلمسان، والشيخ المغيلي، والبلباليين من الجنوب المغربي، وأبي يحيى المنياري الذي ورد عليها وتولى بها القضاء، وبعض علماء المغرب الأقصى مثل مولاي سليمان الإدريسي الفاسي، ومحمد بن عبد الجبار الفجيجي الفقيه، والشريف مولاي سليمان بن علي، والعلامة العبدلاوي بن الطيب من المغاربة ومولاي أحمد الطاهري، وغيرهم.

كلّ هؤلاء استطابوا المقام بها، لطيبة أهلها، وحفاوتهم بالعلم والعلماء، وتيسّر العبادة بها -على تعبير بعضهم-، ولبعدها عن مواطن الفتن السياسية في الشمال، على الرغم من قساوة بيئتها مقارنة بالبلاد التي قدموا منها، كما أنها تسترجع معظم من يرحل عنها لطلب العلم، في الحواضر العلمية الكبرى.

وكان فيمن رحل إلى هذه الحاضرة أيضا مفتي الجزائر العاصمة وعالمها الشيخ سعيد قدورة؛ الذي زار منطقة توات، وأخذ عنه مجموعة من علمائها الأجلة، كما كانت ممرّا لكثير من العلماء الرحالة؛ كأبي سالم العياشي، وعبد الله بن أحمد الفُلاني، وغيرهم.

ولهذا الأمر دلالاته، فإنّ ذلك يشير إلى أنّها أرض خصبة للنشاط الفكري، وأنها بيئة علمية جاذبة للعلم والعلماء، ولا تضيق بأعلام غير المنطقة، وهذه من مميزات الحواضر العلمية العريقة ذات النظرة

الإستراتيجية، فإنّ العلم لا يتطور في بلد يضيق بالأجانب من أهل العلم والفضل، أو يضيق بأهل العلم والمعرفة من أهله، أو ليس لأهله رحلة في طلب العلوم والمعارف خارج دائرة ذلك البلد.

وأنبّه في هذا المقام على ضرورة انفتاح هذه الحاضرة على ما يجدّ في الحواضر العلمية في المشرق، والإفادة من مناهجها ومقرراتها، فإنّ من يتأخر في ذلك يؤخّر ويندثر. وضرورة التعريف بتاريخها ومناهجها ومقرراتها ومميزاتها للآخرين، حتى تزرع الثقة بين أبناء الحاضرة، فيسعون إلى تطويرها بدل تحقيرها.

خامسا– الفاعلية العلمية لأعلام حاضرة توات:

إنّ المقصود من تحصيل العلم هو العمل بمقتضاه، وإنّ وجود حاضرة علمية لا معنى له إذا لم يكن له أي فاعلية في النهوض بالمجتمع الذي يحتضنها إلى حال أحسن من حاله، وهذا ما نلمسه واضحا في بعض أعلام هذه الحاضرة، فإنّ نموذج العلامة المغيلي وغيره من أعلام هذه المدرسة مثال ظاهر على اكتمال هذه المدرسة في اهتماماتها بداية من التعليم والتدريس إلى الفتوى والقضاء، إلى التغيير الاجتماعي، والسياسي، إلى تأسيس الدول.

وعلى الرغم من أنّ الشيخ المغيلي من أعلام هذه المدرسة الواردين عليها، فإنّه لم يتيسّر له فعل ما فعل في غير تلك البيئة المباركة، ولعلّ مرجع الصيت الكبير الذي تمتّع به الشيخ هو ما وقع له مع يهود المنطقة، ومناصرة أهلها له فيما فعل؛ فقد نزل بأرض توات واستقرّ بها، فلم يكتف بمجرّد التدريس، والوقوف موقف المتفرّج حِيَال ما كان يرى من عبث اليهود، وسيطرتهم على مقدرات مجتمع توات، فناوأهم، وعزم على تخليص الأهالي من شرورهم.

وكذلك دوره الخطير في توجيه سياسات ملوك المناطق الجنوبية المجاورة؛ فقد رحل أيام إقامته بتوات إلى أرض السودان الغربي (بلاد التكرور) وكان لتلك الرحلة أثر عظيم على أهالي تلك البقاع، علميا، وسياسيا، واجتماعيا، وأسهم ذلك في نشر الإسلام في تلك البقاع، وانتشار للمذهب المالكي بها إلى اليوم.

وتلك الفاعلية هي التي حملت بعضهم على تلقيبه بسلطان العلماء؛ ووصفه شيخه السنوسي بالفحولة العلمية، لما تميّز به من حركية وتحويل الآراء الفقهية والعلمية التي تلقّنها إلى واقع، وقدرة كبيرة على التغيير الاجتماعي أينما حلّ وحيثما ارتحل، وكانت له هيبة في قلوب العامّة والخاصّة والسلاطين، أمدّته بالمدد لإنفاذ ما كان يراه من أوامر الشارع، فهو في ذلك كالعز ابن عبد السلام عند المشارقة.

ولا شكّ أنّ مرجع بعض ذلك بُعْدُ هذه الحاضرة عن نفوذ السلاطين، والولاة، ورواج سلعة العلم وهيبة العلماء بها.

ولعلّ عناية المغيلي بالتأليف في السياسة الشَّرعية، وأحكام أهل الذمّة تؤكد لنا ذلك التميّز وتلك الفاعلية، وتبيّن لنا بأنّ الرجل كان فقيه دولة، وفقيه مشروع حضاري كبير، ونقله للفقه الإسلامي في ثوبه المالكي من حيز الاستعمال العبادي الشخصي، إلى فضاء التشريع الدولي؛ وهذه قفزة نوعية في هذه الحاضرة.

غير أنّها خطوة لم تجد لها من يوفيها قدرها من الدراسة، وإنّ تراثه العلمي وسيرته العلمية والإصلاحية لا تزال أقلّ من حجم هذا الرجل، وأقل بكثير من الأثر الكبير الذي أحدثه في حياته داخل الجزائر وخارجها، وهذا يذكرنا بمقولة أستاذنا مؤرخ الجزائر الدكتور أبو القاسم سعد الله بأننا شعب يحسن صناعة التاريخ لكنه لا يحسن التأريخ لما يصنعه.

سادسا- قلة اشتهار أعلام حاضرة توات:

وهذه من الخصائص المميّزة لهذه الحاضرة، إذْ بقدر ما يندهش المطّلع على عظيم قدر أعلامها، وعلوّ شأنهم في مختلف الفنون؛ فإنّه يصاب بالحيرة للتقصير الحاصل في التعريف بهم، وخفاء أمرهم على المغاربة قبل المشارقة، وندرة تراجمهم في كتب هذا الفنّ، وعدم نشر القليل النادر مما كُتب في هذا الشأن، وبالخصوص فنّ الترجمة المتخصّصة فإنّه لم يأخذ حقّه في هذه الحاضرة.

وفنّ الترجمة سنّة قد حرِص عليها كثيرٌ من أكابر فقهاء الأمّة، فكتبوا في طبقات فقهاء مذاهبهم، وذيّل لها من جاء بعدهم، من باب العرفان لهم، والوفاء ببعض حقوقهم؛ يقول الإمام النووي في ذلك:" وهذا من المطلوبات المهمات، والنفائس الجليلات، التي ينبغي للفقيه والمتفقه معرفتُها، ويقبح جهالتُها؛ فإن شيوخ الرجل آباؤُه في الدين، ووصلة بينه وبين ربِّ العالمين، وكيف لا يقبح جهلُ الإنسان بالوصلة بينه وبين ربّ الأرباب، مع أنه مأمور بالدعاء لهم، وذكر مآثرهم، والثناء عليهم، والشكر لهم."(١١)

ولعلّ بعض ذلك راجع إلى انحصار العناية بفنون الرواية في هذه المدرسة، في مقابل علوم الدراية، ولا يخفى أنّ علم التراجم لصيق بفنون الرّواية.

كما أنّ انحصار أنواع الإجازة لدى أعلام هذه الحاضرة في الإجازة العلمية، التي لا تُمنح للطالب إلا بعد أن يقضي عمره أو شطرا منه عند شيخه، وهي طريقة تساعد في تمكين العلوم غير أنّها لا يتيسّر بها تعدُّد الشيوخ وتنوّعهم، مما لا يساعد على إيجاد الدافع الكافي على التأليف في فنّ التراجم، خلافا لمن أبقى العمل بسنّة إجازة الرّواية، التي لا تشترط في طالبها أهلية الأداء حين طلب تحمّلها، بل تشترطها له حين الأداء، فيكثر بذلك شيوخ الطالب حين يتأهل، ولا يجد مناصا -في الغالب- من الترجمة لهم، حتى يخرجهم من وصف الجهالة.

---

(١١) النووي، تهذيب الأسماء واللغات، دار النشر دار الفكر/ بيروت، ط١/ ١٩٩٦تحقيق مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر: ١/٢٩.

وإنّ العناية بتسطير أخبار أكابر العلماء وصلحائهم، من أيسر طرق تربية النفوس، ولذلك أولاها القرآن تلك العناية الخاصّة.

وقد يبرّر بعض ذلك كثرة انشغالهم بالتعليم والتدريس، وإيثارهم للزهد والخمول، غير أنّ غالب تراجم الأعلام ترجع إلى ما قام به تلاميذهم، وهذا ما يلصق وصمة التقصير بالتلاميذ، فإنّهم مأمورون بالثناء على شيوخهم، والإشادة بهم؛ كما ذكر النووي؛ والتلاميذ هم سرّ نجاح المدارس الفقهية كما هو معلوم، وهو الذي صرّح به الشافعي في كلامه عن الليث بن سعد وتلاميذه.

سابعا- حفاظ الحاضرة على أسانيدها وأنسابها العلمية:

إنّ التعليم رسالة، وإنّ العلم ميراث نبوي، وأمانة يتداولها الخلف عمن سلف، ولا بدّ لذلك التّوارث من ضوابط، حتى لا يتصدى للتعليم والتربية من ليس لهما أهلا، ولا يُتصدّر للإفتاء والقضاء بغير تمام شروطهما، وقد أحدث المسلمون لذلك تقليدا ونظاما عريقا، يتوارثون به مشعل هذه الرسالة، وتتواصل به أنسابهم العلمية، فتجنبوا بذلك كثيرا من ويلات فوضى الإفتاء في زمانهم؛ مما يُرى اليوم وباله في عالما المعاصر، وهو نظام الإجازة بنوعيه:

(الإجازة العلمية) التي تبيح التدريس للطالب المنتهي رأسا، كما تبيح له الرواية؛ فهي تزكية علمية من المجيز، وهي بمثابة شهادة علمية.

(إجازة الرواية) التي تبيح للمجاز الرّواية عن مجيزه متى تحققت له أهلية الأداء.

ولا يُكتفى في شروط الإجازة بمجرّد إحكام الفقه ومباحثه والعلوم المتعلّقة به، بل يُنظر في الغالب إلى سيرة الطالب وأدبه، حتى يُمنح شرف الاتصال بالآباء الروحيين والعلميين للشيخ المجيز، وهو نظام تحفيزي، ذو قيمة معنوية وعلمية عالية، وهو مما اختُصت به أمتنا دون غيرها من الأمم.

وقد لفت انتباهي استمرار هذا التقليد العريق وهذه السنّة السنية في حاضرة توات وما جاورها، بعد أن قضت عليه الفترة الاستعمارية في حواضر الشمال، وكثير من حواضر العالم الإسلامي، فيتلقى طالب العلم المنتهي إجازة من شيخه؛ تجيز له التدريس والرواية عنه، ويوصله بسلسلة أسانيده فيما أخذ.

والذي يميّز هذه المدرسة هو حفاظها على أسانيد العلوم فيها، من طريق الإجازة العلمية التي لا يحصل فيها الطالب على الإجازة والأسانيد إلا إذا استوفى شروط الأهلية لتدريس العلوم.

خلافا لما عليه الأمر في كثير من حواضر المشرق والمغرب في إجازة غير المتأهلين حين التحمّل، بشرط التأهل حين الأداء، وهي طريقة تحفظ للعلوم انتقالها السّلس، ونقلها الصحيح المتقن، وإنْ كانت تؤدي إلى انحصار أسانيد هذه الحاضرة في القليل من أبنائها، وانحصار ذكر كثير من أعلامها، أو خفاء أمرهم.

والذي أراه يُصلح هذا الأمر هو الحفاظ على هذا التقليد الحضاري، والتساهل في نشر أسانيد هذه الحاضرة لدى المشارقة والمغاربة؛ وإجازة أهل العلم منهم على الأقل، فكم من علمٍ خدمه الأباعد قبل الأقارب، وكم من العلماء من لم يجدوا له ترجمة بعد مماته إلا عند الغرباء من حملة أسانيدهم.

ولا ضير في ذلك، فهو أمر جرى به العمل عند كثير من العلماء الأكابر، فأجازوا لمن لم يلتقوهم أصلا فضلا عمّن التقوه من أهل العلم، وهذا ما بادر به الشيخ محمد باي بلعالم، فترى كثيرا من المشارقة ينقّبون عن أخباره وترجمته، بسبب أنه أجاز لهم الرواية عنه في بعض رحلاته المشرقية، وانا على يقين من أنّه ستظهر له تراجم عديدة في كثير من أثبات المشارقة وتراجم شيوخهم، لهذا السّبب.

ثامنا- عناية الحاضرة بأدلة الفقه وفقه الدليل:

لا شكّ أنّ من أقوى عوامل انتشار المذاهب واستمرارها -بعد عناية السلاطين- قوّة الأدلّة التي يستند عليها المذهب، ولما كانت أقوى أدلة مصادر التشريع الإسلامي القرآن والسنّة؛ كان الاشتغال بهما من أولى ضرورات خدمة المذاهب الفقهية في الإسلام، ولا أتجاوز الحدّ إن قلت بأنّه لم يتوفّر لأي مذهب من مذاهب السنّة وغيرها ما توفّر للمذهب المالكي، من الجمع بين آلة الاستنباط وهي الفقه، ومادّته وهي الأحاديث والسُّنن؛ فإمامهم إمام في الفقه بإجماع الموالف والمخالف، وإمام في الحديث وصنعته، أمير المؤمنين فيه، بإجماع الموالف والمخالف أيضا، ولم يجتمع مثل هذا لواحد من الأئمة الأربعة.

غير أنّ انفراد المذهب بالغرب الإسلامي وانحصاره فيه؛ أوهن العناية بصنعة فقه الحديث ردحا من الزمن، لأسباب أكثرها مستساغ، وبعضه ليس كذلك.

وإنّ المتتبّع لهذه الحاضرة يلحظ فيها عناية بالغة بعلوم الآلة والفقه وعلوم الدّراية الأخرى كما هو معروف عنها، ولها -كذلك- عناية برواية الحديث خصوصا صحيح البخاري وموطأ الإمام مالك خلاف الشائع عنها، غير أنّ ذلك لم يثمر الثمرة المرجوة، ولم يتجاوزوا في ذلك استعمال علوم الآلة للفهم والتدريس، وقراءة البخاري في المواسم لأجل حصول البركة فقط، وأمّا التعامل مع البخاري وغيره بعلوم الآلة فلم يقع ذلك منهم، لرضاهم واكتفاؤهم بما فهمه المتقدمون، وما استنبطوه من أحكام، ولربما قلّت عنايتهم بالمباحث الاستدلالية للفقه الذي يتوارثونه لانعدام المخالف من أهل المذاهب الفقهية السنّية الأخرى بالجوار، فلم يحتاجوا إلى الاشتغال بفقه الدليل، والفقه المقارن، وأحاديث الأحكام.

لا يخفى مدى ندرة عناية أعلام هذه المدرسة بفقه الدليل، على غرار كثير من المدارس الفقهية في العصور المتأخرة، ومرجع ذلك بيّن، إذْ هي حقبة استقرار للمذاهب الفقهية، مع فتور في الفكر الاجتهادي عند المسلمين عموما، إضافة إلى قلّة الداعي إلى ذلك، بحكم الطبيعة المذهبية الموحّدة للمنطقة.

غير أنّ المميّز في الموضوع هو قيام أحد مشايخ هذه الحاضرة بما قصّر فيه كثيرون من أكابر علمائها، بل قام حقّ القيام بما قصر فيه علماء الجزائر قاطبة، وهو ما قام به الشيخ سيدي باي بن عمر الكنتي، علامة الجنوب الجزائري والصحراء الإفريقية الكبرى، وإن شَنْقَطَهُ الشناقطة، منْ شرحه لأحاديث الأحكام التي قام بجمعها وتبويبها علامة الجزائر ومحدّثها، أبو عبدالله محمد بن أحمد المقري، وهو شرح بسط فيه الكلام على تلك الأحاديث؛ استغرق ثلاث مجلّدات، قد تخرج في أكثر من عشر أجزاء متوسطة الحجم، شرحها شرحا وافيا على طريقة الأكابر، وفيه نفَس المتقدّمين في البحث والتأليف، ومن عاين مقدّمته وشرح بعض أحاديثه؛ أيقن أنّه قام بفرض الكفاية، وأدى الدّين الذي كان في عنق أعلام الجزائريين تجاه تلك الأحاديث.

وقد تناول الكلام في مسألة العناية بأدلة الأحكام الفقهية في مقدّمة شرحه هذا فقال:" ثم إني ألتزم فيما أذكره من الفروع بيان ما هو المشهور، وإن كان الراجح حيث الدليل غيره أبيّنه وأرجحه، وأذكر من قال به من علمائنا، وهذه هي طريقة ابن عبد السلام، والشيخ خليل في التوضيح، وشيخ شيوخنا جد الوالد رضوان الله عليهم، وقد نصوا على أن الأقوى دليلا مقدم على المشهور في العمل، كما أوضح ذلك القرافي وغيره."(١٢)

ثمّ أورد كلام القرافي مستشهدا به، يؤيد به ذلك بقوله:" وقد ذم المؤلف رحمه الله في قواعده رد الأحاديث وتأويلها بما يخالف ظاهرها انتصارا لقول قائل. قال رحمه الله: لا يجوز رد الأحاديث إلى المذاهب على وجه ينقص من بهجتها ويذهب بالثقة بظاهرها، فإن ذلك إفساد لها وغض من منزلتها، لا أصلح الله المذهب بفسادها ولا رفعه بخفض درجاتها، فكل كلام يؤخذ منه ويرد إلا ما صح لنا عن محمد صلى الله عليه وسلم بل لا يجوز الرد مطلقا؛ لأن الواجب أن ترد المذاهب إليها .."(١٣)

وقد تناول الشارح هذا الموضوع بالمناقشة فأورد قول عمّه العلامة أحمد البكاي في انقسام الناس فيه ثلاثة أقسام(١٤) قال:" منهم فرقة أقبلت على دراسة الخلافات من غير فقه ولا تفقه، وأعرضت عن علم الكتاب والسنة بالكلية، كأنهم لم يعوا قول مالك رضي الله عنه: إن أحببت أن ينفعك الله بهذا الشأن فأقلل منه وتفقه فيه، حتى إنهم لا يطلبون من القرآن إلا رسمه، ولا من الحديث إلا اسمه، بل ينكرون كل الإنكار على من يروم منهما سوى ذلك، وينسبونه إلى الابتداع، ويرون غاية العلم والعمل ما هم فيه وعليه.

---

(١٢) ينظر ص٧، من المجلّد الأول من مخطوط شرح الأحاديث المقرية، باي بن عمر الكنتي (من نسخة موجودة بحوزتي)

(١٣) ينظر المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٤) نقل ذلك من جواب عمّه العلامة أحمد البكاي وجهه للإمام محمد بلو بن الإمام عثمان بن فودي بخصوص الموضوع: ينظر المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

وفرقة أعرضت عن كل ما دوّن العلماء في كتبهم بالكلية، وأنكروه وعدوه بدعة سيئة، وقالوا: يرجع الأمر إلى ما كان في عهد النبيﷺ لا يفتى إلا بالكتاب، وهم لا علم لهم بالكتاب، ولا مدخل لهم على علمه، إلا بما أرادوا أن يبطلوه ويسدوا بابه جملة.

فهذه والتي قبلها عوراء عمياء، وكلتا الفرقتين إنما تريد التخفيف عن نفسها، وتتبع باطن حدسها، بل أكثرهم للحق كارهون، ...

والحق إنما هو مع الطائفة الثالثة التي تمسكت بالكتاب والسنة، وأقبلت على ديوان علماء الملة، فحققوا ما في الديوان، فحصل لهم علم اليقين، ولم يصل غيرهم إلا إلى التخمين، إذ علم الفقه بدون السنة والكتاب ظلمة لا يهتدي فيها لقصد الصواب، كما أنهما دونه كنز لا ينفتح عنه غلق الباب، فكل راغب عنه عار من التحقيق، وكل معرض عنهما خال من التوفيق.

فالكائن من هذه الطائفة هو أهل الحق والتحقيق، لا ينحجب عنه مع كتاب الله صواب، ولا يغلق عنه مع العلماء بالله باب، ينظر بنور الكتاب إلى الأقوال، فيفرق جسم الصحة من جسم الإعلال، بعد ما سار إلى باب الكتاب بمفتاح أقوال أولي الألباب، فيدخل إلى ما وراء الباب، وينظر إلى ما خلف الحجاب من عجائب الأمر العجاب، فيأخذ ما يكفيه وينشد بملء فيه:

ليلي بوجهك مشرق وظلامه في الناس سار

فالناس في سدف الظلام ونحن في ضوء النهار

وبالجملة فمن فاته أحد العلمين فاته الثاني أو معظمه، فمن لم يفسر الكتاب والسنة بعلوم الفقه لم يحصل على تفسيرهما أبدا، ومن لم يحقق علوم الفقه بالكتاب والسنة لم يقع على تحقيقهما أبدا فعاش حيران ومات حيران... "(١٥)

وهو رأي صريح وجريء من أحد أعلام هذه الحاضرة، وسيكون له أثره العظيم عليها لو تداركته بالنظر أعلامُها، وتلقته بالقبول أحلامها، وذلك أنّ مستقبل الفقه للفقه المدلل، أحبّ من أحبّ وكره من كره، ولعلّ شيئا من ذلك هو ما دفع بالشيخ محمد باي بلعالم إلى تأليف كتابه (إقامة الحجّة بالدليل شرح على ابن بادي لمختصر خليل) الذي أورد في مقدمته شيئا من أقوال يرى أصحابها ضرورة ربط الفقه بالدليل، كالشيخ باي بن عمر الكنتي في شرحه المذكور، وجد أبيه الشيخ المختار الكبير، وغيرهما من بعض علماء المالكية المتأخرين، وذكر بعض من بادر في التأليف في هذا الباب.(١٦)

وهي بارقة أمل في سماء هذه الحاضرة، وخطوة سيكون لها ما بعدها في باب التأليف إنْ وقعت العناية بهذا الفنّ تدريسا وتعليما.

---

(١٥) ينظر مخطوط شرح الأحاديث المقرية: ١/٧-٨.

(١٦) نقلا عن: إقامة الحجّة بالدليل، محمد باي بلعالم، دار ابن حزم/ بيروت، ط١/ ١٤٢٨-٢٠٠٧: ١/ ١٦-٢٣.

تاسعا– خدمة حاضرة توات للمذهب المالكي في باب التأليف:

من خلال التمحيص العاجل للمقررات الدراسية لطلبة هذه الحاضرة، وللكتب التي يحرصون على دراستها داخل هذه الحاضرة وخارجها، يمكننا القول بأنّ مدرسة الفقه المالكي في الجنوب الجزائري فروعية، نوازلية، شديدة الوفاء للأصول التي قام عليها المذهب، ومن أمارات وفائها وإخلاصها في ذلك عدم اشتغالها بمراجعة التراث الأصولي للمذهب، بل انشغلت بالتفريع على تلك الأصول، فيما لم يصلها مفرَّعا؛ فاهتمت بالنوازل الفقهية، وبالتدريس، والعناية بمشهور كتبه التدريسية شرحا أو نظما أو تعليقا، فهي مدرسة عملية.

وقد أرجع ابن خلدون –قديما– عدم مشاركة المذهب المالكي في الأصول مبكرا إلى أنّ أغلب منتحليه من أهل المغرب، الذين يغلب عليهم طبع البداوة، والذين لم تصقل مواهبهم العقلية بعد لذلك.

وكلامه هذا قد يكون صحيحا لو كان للمذهب المالكي مذهب سنّي منافس في البلاد المغربية، فالأولى من ذلك أن نردّ قلّة اشتغال مالكية المغرب بعلم الأصول، إلى قلّة الداعي إليه، وانعدام المنافس في أكثر بلادهم، وفي أكثر تاريخهم، وليس إلى فقدانهم الأهلية والملكة التي يتطلبها الأمر، والدّليل على تهافت قوله، أنّه لمّا اشتطّ ابن حزم ومن نحا نحوه في الأخذ بالظاهر والعيب على المالكية وغيرهم، تصدّى له مالكية المغرب بابتكار علم استخرجوا مفرداته من علم الأصول، ثمّ استقلوا به عنه: وهو (علم المقاصد)، وأبَوْا إلا أن تكون ردّة الفعل على قدر شطحات المذهب الظاهري في مغربهم، ولا يزال التأليف في فنّ المقاصد حكرا على المغاربة أو يكاد.

غير أنّ الجانب السلبي لظاهرة إهمال النهوض بالدرس الأصولي في هذه الحاضرة هي عدم جاهزية خريج هذه المدرسة لمسايرة خريجي مدارس المشارقة، الذين يتناولون مقرّرات كاملة في علم الأصول، يغطي مختلف مراحل الدراسة، يبدأ بورقات الجويني وشروحها لينتهي بجمع الجوامع للسبكي، ويدعّمون ذلك بمقرّرات خاصّة بعلم المنطق، وكتب خاصّة بعلم الجدل والمناظرة، لأنّ بيئتهم بيئة خلاف مذهبي متجذّر.

كما أنّ هذه المدرسة لا تتمكن من مواجهة مدارس المشارقة في عنايتا بفقه الدليل، إذ إنّ كثيرا من علمائها تفننوا في التأليف في فنّ الأصول، وفي شرح أحاديث الأحكام، وتوجيه معانيها على ما يوافق مذاهب أئمتهم–كما ذكرت آنفا–، والسبب في ذلك ظاهر؛ وهو قلّة الحاجة إليه في هذه الحاضرة، وندرة من يسأل الفقيه من أين لك هذا، ولانعدام وجود المخالف، أو المذهب المنافس...

فالغالب –إذن– على مؤلفات هذه الحاضرة وجهتان:

إحداهما– الوِجهة التدريسية المفيدة لطلبة العلوم، كنظم المتون المنثورة، أو شرح المشكل من الكتب المشهورة، والتفريع على أصول المذهب، ولا يتم إضافة تأليف ذو مكانة عالية في مؤلفات هذا الشأن إلا نادرا.

وتتعلّق في الغالب بنظم متون مدرسية شهيرة في المذهب لتيسير حفظها، وغالبا ما يودعون عليها شروحا وتقاييد، وفي ذلك دلالة على أمرين؛ أحدهما: التمكن من المادة الأساسية للمقررات التدريسية في المذهب، والثاني التمكّن التامّ من ناصية اللغة العربية وآدابها، يظهر ذلك خصوصا في الاقتدار الشائع على نظم أيّ علم من العلوم، واهتمامهم بذلك حتى أنّهم ينظمون أبسط المسائل، من باب تيسير العلوم، ومن باب خلط الفقه بالأدب، وهو مطلب عزيز، وغالب كتبهم في هذا المجال لا تزال حبيسة خزائن مخطوطاتهم.

والثانية– وجهة نوازلية؛ تفيد المجتمع في العموم، والذي نفيده من معرفة وجود هذا الضرب من التأليف؛ هو الدلالة الواضحة على استحكام الملكة الفقهية في تلك البقاع، وترقي فقهائها من مجرّد نقل الفتاوى والأحكام إلى استنباطها بأنفسهم، والتحول من الاستهلاك الفكري إلى مرحلة الإنتاج –على اصطلاح المعاصرين.

إنّ التأليف في النوازل هو الوجهة التي تظهر فيها الملكة الفقهية لعلماء هذه الحاضرة؛ لأنّها انعكاس لمدى تمكّن الملكة الفقهية في نفس الفقيه، وسبر لمدى تمكن المفتي أو القاضي من القدرة على استنباط الأحكام من خلال الأصول التي درسها، وعلى ضوء تكوينه العلمي، وتجربته في ممارسة التعليم والتوجيه والفتوى، وتعكس مدى اقتداره على التعامل مع المستجدات، بما اكتسبه في مشواره الدراسي والتدريسي؛ وإسهامه في إثراء الجانب التطبيقي في التعامل مع جديد واقعه الاجتماعي.

وهو ضرب من الكتب يتّسم بالواقعية، والطابع المحلي، والتجدُّد المستمر، والتنوع شكلاً وموضوعاً، مما يجعل منه مقصدا للفقيه، والمفتي، والقاضي، والسّياسي، والمؤرخ، والاقتصادي، وغيرهم من أصناف العلماء والباحثين.

والذي يغمط تلك الجهود حقّها، هو تقصير أهلها في طباعة كثير من درر تلك التآليف ونشرها، وإخراجها للناس قبل فوات وقتها، أو وفاة أهلها، أو تلفها بمختلف عوامل الفساد.

ولعلّ أقلّ ما يمكن القيام به في هذا الباب تمكين بعض الباحثين المقتدرين من أصولها، وانتدابهم بصفة رسمية أو غير رسمية لإجراء دراسة تقييمية لمحتواها، في أبحاث موجزة، بحجم أبحاث هذه الملتقيات، ونشرها في مجلات أكاديمية لائقة، داخل البلاد وخارجها.

عاشرا– اتّصالاتها العلمية، ودورها المرتقب:

لم تكن هذه الحاضرة معزولة عن باقي الحواضر العلمية داخل الجزائر وخارجها، بل كانت على اتّصال وثيق بأشهرها؛ ابتداء من مصر فتونس فبجاية فالجزائر العاصمة فتلمسان ثم فاس وبلاد التكرور وانتهاء بمراكش، وكانت أغلب تلك العلاقات علاقات استفادة لصالح هذه المدرسة، غير أنها لم تعدم أعلاما أفادوا خارج إقليمهم، خصوصا في منطقة الصحراء الإفريقية الكبرى؛ فكانت هذه الحاضرة واسطة علمية بين الشمال والجنوب، كما كانت واسطة تجارية ودعوية بينهما.

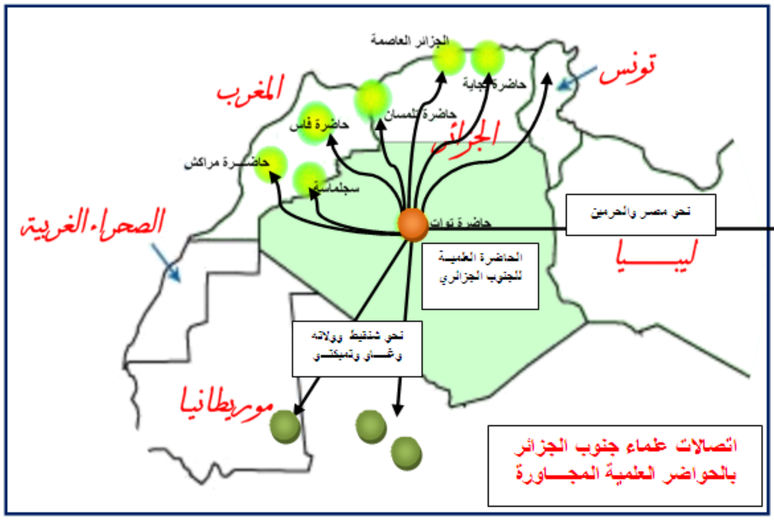

والذي يُنتظر من هذه الحاضرة المعمّرة أن تلعب دورها في النهوض بما جاورها شمالا بعد دورها الكبير في المناطق الجنوبية، خصوصا بعد أفول نجم الحواضر الشمالية، تحت نير الاستعمار.

وعلى الرّغم من أنّ هذه الحاضرة لا تزال تزوّد مختلف أنحاء الوطن بالأئمة والوعاظ ومعلّمي القرآن؛ إلا أنّ المأمول منها أكثر من ذلك، وهو الإسهام بإعادة إحياء الحواضر المندثرة بالشمال، وتأسيس حواضر أخرى، في باقي أرجاء الوطن.

الخاتمة :

والذي نخلص إليه من جميع ما ذكرنا في هذه الخصائص أنها حاضرة تقليدية كلاسيكية معمّرة، قد أصابها وهنٌ خفيف؛ غير أنّها تمتلك كثيرا من عوامل البقاء والاستمرار، إنْ تمّ تطعيمها بما يمكّنها من التجاوب مع مستجدات العصر.

بل تمتلك أهلية إعادة إحياء الحواضر المندثرة، إذا ما توفرت الإرادة الحقيقية من مختلف الأطراف الفاعلة التي يتعلّق بها الأمر، وبالخصوص حواضر الجزائر العتيقة؛ كتلمسان وبجاية والجزائر.

كما تمتلك الأهلية الكاملة لتأسيس حواضر علمية جديدة؛ إن توفّرت لها الظروف المناسبة أيضا.

وهي مؤهّلة –بحق– لاسترجاع نفوذها العلمي والرّوحي على الأقاليم الجنوبية المتاخمة للقطر الجزائري، وخصوصا في هذه الفترة العصيبة، والظروف غير المستقرّة في تلك البقاع.

مراجع البحث ومصادره:

١. تهذيب الأسماء واللغات، النووي، دار النشر دار الفكر/ بيروت، ط١/ ١٩٩٦تحقيق مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر.

٢. من آثار العرب والحضارة العربية الإسلامية في منطقة حوض نهر النيجر "مالي"؛ (مقال)، منشور على موقع (جيران) [http://sayedbenalfardy.jeeran.com/].

٣. Paul Marty, L'Islam et les tribus dans la colonie du Niger.

٤. كنتة الشرقيون: بول مارتي، تعريب وتعليق: محمد محمود بن ودادي، مكتبة زيد بن ثابت/ دمشق . سوريا ١٩٨٥م.

٥. الداعية المصلح محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي؛ مقال منشور على موقع منتديات الجلفة: (http://www.djelfa.info/vb/archive/index.php/t-39069.html)

٦. شرح الأحاديث المقرية(مخطوط)، باي بن عمر الكنتي (من نسخة موجودة بحوزتي)

٧. إقامة الحجّة بالدليل، محمد باي بلعالم، دار ابن حزم/ بيروت، ط١/ ١٤٢٨-٢٠٠٧: ١/ ١٦-٢٣.

٨. المدرسة الفقهية المغاربية المالكية(مقال)، د.مبروك المصري، مجلة الثقافة الإسلامية: العدد الأول.

٩. القول البسيط في أخبار تمنطيط، محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم الشهير بابن بابا حيدة، تح:فرج محمود فرج. مطبوع مع كتاب إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، فرج محمود فرج/ ديوان المطبوعات الجامعية- ٢٠٠٧م.

١٠. المدرسة المالكية في الجنوب الجزائري، د.عزالدين كشنيط، بحث منشور قدم للملتقى الوطني الخامس للمذهب المالكي في إطار الأسبوع الوطني العاشر للقرآن الكريم حول: (المدرسة المالكية الجزائرية)، نظمته ولاية عين الدفلى بالتنسيق مع وزارة الشؤون الدينية والأوقاف في ثلاثاء ١٤ آفريل ٢٠٠٩م.

١١. علاج النوازل العقدية عند المغاربة (نماذج ومناهج)، د. عز الدين كشنيط ، بحث ألقي في ملتقى دولي حول المذهب المالكي بعين الدفلى، أفريل ٢٠١٠م.